المحاضرة الثالثة : (أولية الشعر الجاهلي: الأستاذ: مولاي عبد المالك الداودي (مدخل إلى تاريخ الأدب) الفصل الأول

الإرهاصات الأولية للشعر الجاهلي:

حظيت أولية الشعر الجاهلي باهتمام خاص في النقد العربي منذ القدم، وما زالت تحتل موقعها الذي تبوأته منذ القرن الثاني الهجري، لما اعتراها من غموض أوقع الكثيرين من الدارسين والمشتغلين بتاريخ الأدب العربي في حيرة ولبس، وما ذاك إلا لغياب الإثباتات المادية والقرائن العلمية التي يُستند إليها ويُطمأن إلى صحتها.

فمما لا شك فيه أن الشعر الجاهلي قديم موغل في القدم، قد مر بأطوار وأزمان طويلة، كان في عهد بداية وطفولة، ثم نما وترعرع حتى استوى قصيدا متينا على يد امرئ القيس وأقرانه من فحول الشعراء الجاهليين.

ولابد من أن يكون للشعر تاريخ طويل قطع فيه أشواطا من الصناعة والدربة والمران حتى استقام واكتمل على هذا الشكل الموزون المقفى.

ومن المعلوم أن جزءا ضئيلا من الشعر الجاهلي قد وصل إلينا، أما معظمه فقد ضاع واندثر يقول **أبو عمرو بن العلاء(154هـ): (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير).**

ولعل أسباب الضياع تعود إلى طبيعة البيئة الصحراوية، وما تفرضه على الحياة العربية من عدم استقرار، فهم في حل وترحال دائم، يتنقلون وراء مساقط الماء ومنابت الكلأ، لا يعتمدون على الكتابة في حفظ تراثهم الأدبي؛ لقلة من يجيدونها، ومن ثم كان اعتمادهم بشكل كبير على الحفظ والرواية، وهما يتصلان بالطبيعة الإنسانية التي تتأثر بالنسيان والموت.

وليس من المستطاع تحديد حقبة زمنية معينة لبدء تلك المحاولات الشعرية، ولكن ما بأيدي الرواة من الشعر الجاهلي يرقى عهده إلى مائتي سنة على الأكثر، وهو التحديد الزمني الذي قرره **الجاحظ (255هـ) في قوله: (وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام).**

ويبدو أن الجاحظ لم يرد أن أول قصيدة جاهلية نظمها شاعر جاهلي تعود إلى مائتي عام قبل الإسلام، وإنما أراد أن بدائع هذا الشعر وروائعه التي توافرت فيها التقاليد الفنية ـ لغوية كانت أو موسيقية أو تصويرية ـ هي التي نظفر بها خلال هذين القرنين.

أي أن الجاحظ يعين عمرا للشعر الجاهلي الذي عُرِفَ وهو ناضج مكتمل فنيا، وموضوعيا، وموسيقيا، أما ما قبل ذلك التاريخ فلا يمكن أن يحد بحقبة زمنية معينة، ذلك أن هناك مئات من السنين قد مر بها الشعر الجاهلي حتى وصل إلينا بهذه الصورة المتكاملة.

فالنمو الطبيعي للقصيدة الجاهلية بأوزانها وموضوعاتها ومضامينها، يستدعي أن تكون هذه القصيدة قد مرت بأطوار كثيرة، قبل أن يُكتب لها هذا الاكتمال الشامل.

لأننا لو رجعنا إلى القصائد الطويلة في الأدب الجاهلي لوجدنا أنها تأخذ نمطا معينا في التعبير والأداء، وكأن الشعراء كانوا يحرصون على أسلوب متوارث فيها، وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بأن القصيدة الجاهلية قد مرت بمراحل معينة كانت تقتفي فيها أنماطا تقليدية سائدة.

ولعل في الشعر الجاهلي نفسه ما يؤكد تلك المحاولات السابقة، ممثلة بما ذكره بعض الشعراء كامرئ القيس وعنترة وزهير، هؤلاء الذين أقروا بوجود شعراء قد سبقوهم إلى قول الشعر، يقول امرؤ القيس :

عُوجَا على الطَّلَلِ المُحيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيارَ كما بَكَى ابن حُذامِ

فالشاعر هنا إنما يحاكي من سبقه في الوقوف على الديار والبكاء عليها، وهو منهج قد التزمه الشعراء فيما بعد، ونسجوا على منواله.
ويقول عنترة بن شداد :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدِّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّار بَعْدَ تَوَهُّمِ

فهو إقرار واضح من الشاعر بأنه قد سبق بأجيال من الشعراء قد طرقوا المعاني والموضوعات الفنية، واستوفوا جميع مفرداتها وتعابيرها الجميلة، فلم يغادروا صغيرة أو كبيرة إلا وتناولوها في أشعارهم.

ومن النقاد الذين تناولوا هذه القضية كذلك **ابن سلام الجمحي (231هـ) الذي يقول: (ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته....، وكان أول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل (وكان اسم المهلهل عديا) وإنما سمي مهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، وهو اضطرابه واختلافه)، أو لأنه هلهل الشعر، بمعنى سلسل بناءه.** **الأستاذ: مولاي عبد المالك الداودي**

أي أن ابن سلام يتحدث عن البدايات الأولى للشعر العربي، وإنه كان في صورة مقطعات صغيرة، وأبيات مفردة، ثم يعمد إلى تحديد بداية تقصيد القصائد، وأن المهلهل بن ربيعة هو أول من قصدها إثر مقتل أخيه كليب في حرب البسوس على يد جساس بن مرة، فرثاه بقصيدة مطلعها:

أَلَيْلَتَنَا بِذِي حُسُمٍ أَنِيرِي إذا أنتِ انقضيتِ فَلا تَحُورِي

فضلا عن أنه قد أشار إلى أسماء بعض الشعراء القدماء الذين رُويت لهم مقطعات شعرية أو أبيات مفردة، أمثال دُوَيْدُ بن نَهْدٍ القُضَاعِي، وأَعْصُرُ بن سَعْدٍ بن قَيْسِ عَيْلان، والمُسْتَوْغِرُ بن ربيعة، وزهير بن جَنَابٍ الكلبي، وجُذَيْمَةُ الأبرش.

كما وقف ابن قتيبة (276هـ) عند أولية الشعر الجاهلي دون أن يحدد الحقبة الزمنية لنشأته، قائلا): لم **يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة**)، فهو يتجنب بذلك الحديث عن تقصيد القصائد، أو محاولة إبداء رأي في نشأة الشعر الجاهلي، مكتفيا بالحديث عن الأبيات المفردة التي يقولها الرجل لحاجة ما، فتلك الأبيات هي الأساس الذي انطلق منه الشعر، حتى استوى قصائد كاملة ناضجة.

ومن المستشرقين الذين تناولوا هذه القضية المستشرق بروكلمان الذي يقول: (إن شعر العرب كان فنا مستوفيا لأسباب النضج والكمال منذ أن ظهر العرب على صفحة التاريخ، ولا تستطيع رواية مأثورة أن تقدم لنا خبرا صحيحا عن أولية الشعر).

وعلى العموم فإن هناك اختلافا واضطرابا في معرفة الشاعر الأول الذي قصد القصائد، ويبدو أن العصبية القبلية كانت هي السبب الرئيس وراء ذلك، فكل قبيلة تحاول أن تنال قصب السبق، وتستأثر بالمجد دون

سواها من القبائل، فتدعي أن شاعرها هو أول من قصد القصيد، ثم نسج الآخرون على منواله، فادعت اليمانية أن امرئ القيس أول من أطال القصائد، وقال بنو أُسد بل عبيد بن الأبرص، ونسب التغلبيون الأولية إلى مهلهل، وعزاها البكريون إلى عمرو بن قميئة والمرقش الأكبر، وزعم بعضهم أن الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء وأنه أول من قصد القصيد.

على أن هذه القبائل لم تكن تتنازع في أول من قال الشعر، ولا في قائل البيتين أو الثلاثة؛ لأنهم لا يعدون ذلك شعرا، فضلا عن أنهم كانوا يدركون أن هناك محاولات قد سبقتهم إلى ذلك، ومن ثم فهم إنما كانوا يتنازعون في أول من نضج الشعر على يديه، وصار فنا مكتمل المعالم واضح السمات.

ومن هنا تظل البداية الحقيقية للشعر الجاهلي مشوبة بالضبابية والاضطراب، والأحكام غير المؤسسة على معايير علمية يمكن الاطمئنان إليها، لتزيل الغموض الذي اكتنف المحاولات الأولى لقول الشعر.

المحاضرة الرابعة: رواية الشعر الجاهلي **الأستاذ: مولاي عبد المالك الداودي**

اهتم العرب بتراثهم الأدبي، ولم يركنوا إلى سواه، فهو مثلهم الأعلى، وهم أمة الأدب، وقد نال الشعر .ولاسيما الجاهلي . اهتماما خاصا منهم، بوصفه (أساس الأدب العربي كله، وعنوان فحولته وأصالته، شغل به العلماء والأدباء من القدامى)، واحتل مكانة كبيرة في نفوسهم؛ لأنه قد مثل(القمة الشامخة التي وصل إليها الشعر في جودة أسلوبه، وحسن صياغته، وجمال معانيه، وسلامة لغته) مما جعله رأس الفنون الأدبية عندهم، يقول ابن سلام : (وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون واليه يصيرون)، ويقول عمر بن الخطاب : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه)، ويقول الجاحظ: (فكل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضرب من الضروب، وشكل من الأشكال، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى)، الذي يرضي جمهور المتلقين بشكل عام، والمثقفين منهم بشكل خاص، على اختلاف منازعهم وأذواقهم .

وهكذا احتفل العرب بهذا الفن وعَظُمَ تأثيره في حياتهم ,وتبوأ منزلة متقدمة في أخبارهم ورواياتهم، انسجاما مع طبيعة الدور الذي نهض به، والمهمة الكبيرة التي تكفل بها، لما له من قدرة في التأثير وبراعة في التوجيه، حتى غدا سجلا لمآثرهم ومفاخرهم التي حرصوا على تخليدها وسيرورتها، **يقول ابن قتيبة: (وللعرب الشعر الذي أقامه الله تعالى مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا، ولآدابها حافظا، ولأنسابها مقيدا، ولأخبارها ديوانا، لا يرثّ على الدهر، ولا يبيد على مر الزمان)** ،لما يتمتع به من السمات والمؤهلات التي هيأت له الرسوخ والاستمرار عبر العصور المختلفة.

وقد كان للشعر تأثير كبير في نفوس العرب، وهيمنة عظيمة، فرب بيت شعر يقوله شاعر يرفع به قدر وضيع أو يضع قدر رفيع, **يقول الحصري القيرواني (ت 453هـ) : (وقد بنى الشعر لقوم بيوتا شريفة, وهدم لآخرين أبنية منيفة)، والأدلة على ذلك في الشعر كثيرة.**

لقد كانت الرواية الشفوية عند العرب هي الوسيلة الأساس لحفظ الشعر العربي منذ العصر الجاهلي وحتى عصر التدوين في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، فقد (كانوا أميين لا يكتبون)، كما يقول الجاحظ، وإن الذين يجيدونها كانوا قلة قبل الإسلام، أي: أن الكتابة لم تكن هي الوسيلة الفعالة لتدوينه وحفظه للأجيال التالية؛ إذ لم تكن متداولة بشكل كبير، وإنما كانت معروفة عند طائفة معينة في بعض الأماكن المستقرة مثل مكة ويثرب والحيرة، تلك الأماكن التي تتوافر فيها مقومات الكتابة، ولاسيما أدواتها المختلفة، فكان الاعتماد على الحافظة، والاتكاء على الذاكرة هي السبيل الرئيس لحفظه وتداوله؛ على أن ذلك لا يمنع أن يكون بعض الشعراء يعرفون الكتابة، **يقول المرقش الأكبر**:

الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَما رَقَّشَ في ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ

ويقول لقيط بن يعمر الإيادي:

سَلامٌ في الصَحيفَةِ مِن لَقيطٍ إِلى مَن بِالجَزيرَةِ مِن إِيادِ

بِأَنَّ اللَيثَ كِسرى قَد أَتاكُمُ فَلا يَشغَلكُمُ سَوقُ النِقـادِ

ولم يعثر العلماء على شعر قديم مدون بقلم جاهلي، وكل ما يعرف من هذا الشعر مستمد من أفواه الرواة الذين كانوا يتناقلون الأشعار الجاهلية عن طريق الرواية والحفظ؛ وتعود أسبـاب ذلك إلى انتشار الأمية عند العرب، وقلة وسائل التدوين والكتابة لديهم، إذ اقتصر على الحجارة الرقيقة، والجلود، والعظام، وسعف النخيل، وما إليها. ومن ثم كان المعلمون قلة بينهم وفي بعض الأشعار الجاهلية إشارات إلى وجود الكتابة ونقوشها، وهي ترد في مطاوي وصف الشعراء للأطلال والرسوم الدارسة، كقول الأخنس بن شهاب التغلبي، مشبهاً أطلال المحبوبة بالكتابة على الجلد الرقيق

لابنةِ حطّان بـن عوف منـازل كما رقش العنوان في الرق كاتبه

على أن استعمال الكتابة يقتصر على شؤون من الحياة الاجتماعية والتجارية وما إليها، مما يكون ميدانه النثر، من دون الاتكاء عليها في كتابة الشعر؛ لأن العرب كانوا يعتمدون في حفظ الأشعار على الرواية الشفوية، حتى في خطبهم ووصاياهم وأمثالهم، يسعفهم في هذا الحفظ ذاكرة قوية تأنس بموسيقى الشعر وأوزانه، خاصة، واعتادت ذلك حتى صارت سجية من سجاياهم، وطبيعة متأصلة فيهم، فضلاً عن حبهم للشعر وعنايتهم الفائقة بروايته وتناقله، لأنه ديوان مناقبهم، وسجل حياتهم وانتصاراتهم، ولم يكن لهم – كما يقول ابن رشيق – **علم أصح منه**. فلا غرو أن يكون دعامة السّامر عندهم، ومدارَ حلقات القوم لديهم، في مواسمهم وندواتهم، وقد أدى ذلك أيضاً إلى ظهور حلقات من الشعراء الرواة، الذين يأخذ بعضهم عن بعض، مما يمكن أن يسمى اليوم بالمدارس الشعرية، وأشهرها تلك التي تبدأ بأوس بن حجر، وعنه أخذ الشعر ورواه زهير ابن أبي سلمى. ولزهير راويتان: ابنه كعب، والحطيئة، وكان هدبة بن الخشرم راوية الحطيئة، وعن

هدبة تلقن الشعر ورواه جميل بن معمر، صاحب بثينة، وراوية جميل هو كثير عزة، الذي يُعد آخر من اجتمع له الشعر والرواية.

ولما جاء الإسلام شغل العرب والمسلمون عن الشعر بالغزو والفتوح. ولما اطمأنوا بالأمصار، واستقرت دولتهم، راجعوا رواية الشعر – كما يقول ابن سلام – فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب. وأَلْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير.

ومع ذلك، فقد نشطت رواية الشعر في القرن الهجري الأول، لأسباب مختلفة، ولازمها بعد قليل نشاط حركة التدوين عامة، ونشأت طبقة من الرواة الذين يتخذون رواية الأخبار عن الجاهلية وأيامها. وكان من نتائج ذلك وجود شعر مفتعل صنعه الرواة الوضاعون، ونسبوه إلى شعراء جاهليين، سنداً لعصبية قبلية، أو رِفْداً للقصص والأخبار، أو إذاعة لنزعة شعوبية، أو إرهاصاً للبعثة النبوية.

وقد برزت مدرستين أو فئتين لكل منها أسلوبها ومنهجها، الأولى كوفية والثانية بصرية.

وقد عرف بالوضع من رواة الكوفة: حماد الراوية (ت 156هـ) ، المتهم بتزيده وكذبه وانتحاله الشعر، كما اشتهر – إلى جانبهم – رواة ثقات من أهل الكوفة: كالمفضل الضبي(ت168هـ)،أبو عمرو الشيباني (ت 213هـ)،ابن الأعرابي (ت231هـ)، محمد بن حبيب (ت245هـ)، ابن السكيت (ت244هـ)، ثعلب (291هـ).

أما رواة البصرة فيأتي في مقدمتهم أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ)، ومثلما كان في الكوفة رواة متهمون بالوضع والانتحال والتزوير كان في البصرة كذلك، ولعل من أبرزهم خلف بن حيان الأحمر (ت180هـ)، فضلا عن ذلك فقد كان في البصرة رواة ثقات عدول يتصدون للوضاعين والمتزيدين، أمثال الأصمعي (ت216هـ)، أبو زيد الأنصاري (214هـ)، أبو عبيدة معمر بن المثنى (211هـ)، وابن سلام الجمحي وغيرهم، ميزوا الشعر الصحيح من الشعر الزائف؛ وكان في مقدمة هؤلاء ابن سلام الجمحي، الذي عالج هذا الموضوع مفصلاً في طبقاته، ومما قاله: "وليس يَشْكُلُ على أهل العلم زيادة الرواة، ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولدون". كما أن في كتاب «الأغاني» إشارات كثيرة إلى أشعار منحولة، وأخبار موضوعة، نص عليها أبو الفرج بعد أن تفحص رواياتها، ورجع إلى دواوين الشعراء أنفسهم.

ومع كل هذه الجهود، وغيرها، التي حرص أصحابها على تنقية الشعر القديم من الشوائب الزائفة، وإيصاله إلينا صحيحاً موثقاً، قام في العصر الحديث لفيف من المستشرقين والدارسين العرب يثيرون قضية النحل والانتحال في الشعر الجاهلي، ويشككون في صحة هذا الشعر، على تفاوت فيما بينهم، شططاً وتحاملاً، أو اعتدالاً وحياداً، وبلغ الأمر ذروته عند المستشرق الإنكليزي مرجليوث الذي نشر مقالة له بعنوان "أصول الشعر العربي"، أنكر فيها صحة الشعر الجاهلي جملة، وأقام مذهبه هذا على مزاعم وتصورات متناقضة، جعلت بعض المستشرقين أنفسهم يردون عليه ويفندون آراءه، ومنهم جيمس لايل، ناشر المفضليات.

وفي مصر قام طه حسين يحذو حذو مرجليوث، حين نشر كتابه «في الشعر الجاهلي» وضمنه آراء جريئة جعلت بعض العلماء والنقاد يردون عليه كالرافعي، ومحمد فريد وجدي، ومحمد الخضري، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد الخضر حسين، وأدى ذلك إلى أن يعيد طه حسين النظر في كتابه، تعديلاً وحذفاً وزيادة، ويصدره في العام التالي بعنوان آخر: «في الأدب الجاهلي» بعد أن ضم إليه بحث النثر الجاهلي، وأفاض في شرح نظريته وتطبيقاتها، ووقف عند أسباب الوضع والنحل في الشعر العربي، كما أوضح أسباب الشك في الشعر الجاهلي، ودوافعه، ولخص ذلك بقوله: «إن الكثرة المطلقة – مما نسميه أدباً جاهلياً – ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين

ولم يسلم – مع ذلك – كتاب طه حسين الثاني من النقد والتفنيد. ومرت السنوات بعد ذلك، ولم يكتب لنظرية طه حسين وأمثاله القبول التام، وإن أيقظت الأذهان، ولفتت الأنظار إلى ضرورة التثبت من صحة الشعر الجاهلي، بل صحة كل شعر، قبل روايته أو الاستشهاد به، ويضاف إلى ذلك ظهور كتب ودراسات جديدة زادت من توثيق الشعر الجاهلي وتصحيح ما صحّ منه، ونوّهت بكثير من مصادره الأصلية، وفي مقدمة هذه الكتب كتاب «مصادر الشعر الجاهلي» لناصر الدين الأسد. وقد وجد الباحثون المعاصرون بين أيديهم عدداً من مصادر الشعر الجاهلي التي جاءت عن طريق الرواة الأمناء الصادقين، الذين وقفوا جهودهم على التحري والتثبت، ولم يخف عليهم وجود شعر جاهلي منحول كشفوا جانباً منه

ولقد حازت آثار أولئك الرواة القبول والتقدير، وعُدّت مصادر أساسية للشعر الجاهلي.